ولاية أهل البيت - عليهم السلام - في نهج البلاغة

- قراءة تأويلية -

الأستاذ الدكتور

حاكم حبيب الكريطي

جامعة الكوفة / كلية الآداب

لقد تسرّبت الى كتب الحديث والسير والتاريخ ، كثير من الأخبار والروايات التي يحيط بها الشك أحياناً ، أو التي تبعد عن طريق الحق أحياناً أخرى ، بدافع الحب والولاء لهذا الشخص أو ذاك مرة ، وبدافع القصد المريب مرة أخرى . والشواهد على ذلك لا تحتاج الى إحصاء لأنها أكثر منه . ومن واجبنا أن ننظر الى أية رواية أو خبر على وفق المعيار القرآني ، فما توافق معه فمقبول مأخوذ بهِ ، وما خالفه مرفوض مرغوب عنه ، واستناداً الى هذا المنهج ، فإن النظر في تلك الأخبار والروايات ، يظهر لنا بعد بعضها عن الدين القويم ، لأنّ بعض المسلمين جعلوا ما يصدر عن الصحابي مقدساً كقدسية القرآن والحديث النبوي الصحيح ، وهذا لا يصح أبداً ، لأن بعض الصحابة جعلوا لأنفسهم سنة وأسبغوا عليها قدسية مستثمرين صحبتهم للنبي - ﷺ - ، وهذا لا يصح أيضاً ، لأن ما يصدر عنهم ، يصدر عن بشر يصيب ويخطئ ، فضلاً عن أنه يصدر عن إنسان يمزج ما يصدر بمشاعره وأحاسيسه ، ولا يمكن أن يتخلى عنها لأنه غير معصوم من الوقوع في الزلل .

وما دام الأمر هكذا ، فلا يمكن أن يكون لإنسان ولاية على إنسان آخر إلّا أن يكون الوليّ مبرأ من الخطأ ومعصوم من الوقوع فيه حتى يسير بمن يتولاه على الطريق المستقيم ، وتكون سنته قدوة لتابعيه . وهذا شأن النبي - ﷺ - إذْ صار ولياً للمسلمين برحمة من الله تعالى ، لأنه معصوم مسدد ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى** ﴾ (١) ، فحقّ له - ﷺ - أن يكون ﴿ **أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾(٢) ، وهذا تشريف الهي ، صار حقاً لصاحبه وأجمع عليه المسلمون .

وصار علي بن أبي طالب - عليه السلام - اماماً و ولياً للمسلمين ، بنصّ القرآن الكريم ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ (٣) ، وقد أجمع المسلمون على انّ المراد بالذين آمنوا الذين

---

(١) النجم ٣ .
(٢) الاحزاب ٦ .
(١) المائدة ٥٥ .

صارت لهم ولاية على المسلمين ـ علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ كما سيرد في ثنايا هذا البحث بعد قليل .

ورب معترض يقول : انّ هذا القول لا يؤمن به البعض الآخر ، لأنّ له توجيهاً للآيات القرآنية يخالف ما نقول به ، وهنا نقول ، انّ هذا أمر مألوف في نأنأة الاسلام ، إذْ دخل بعض الاعراب الى الاسلام ــ وصاروا مسلمين ، ولم يكونوا مؤمنين حتى يؤمنوا بهذا الذي نقوله ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١) ، بل انّ بعضهم كان أجدر بأن لا يعلم حدود ما أنزل الله ، قال تعالى ﴿ **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (٢) .

وقد وضع سيد أهل البيت بعد النبي محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الإمام علي ـ عليه السلام ـ منهاجاً للتعامل مع هؤلاء يقوم على التسامح ، فحينما تخلّف عن بيعته من تخلف لم يجبرهم عليها ما داموا مسالمين وعدهم من المفتونين الذين ينطبق عليهم قوله ـ عليه السلام ـ ((**ما كل مفتون يعاتب**)) (٣) .

واستناداً الى هذا كلّه فينبغي أن يكون الولي أولاً ثم يأتي من بعده من يكون ولياً عليه ، وهكذا هو شأن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ الذي كان الفتح بهم وسيكون الختم بهم كذلك ــ **كما سيرد في هذا البحث بعد قليل** ــ ، ليتجسد حقاً معنى الولاية .

انّ الولاية تستوجب محبة لأصحابها ، لأنها منهاج قرآني يستدعي تمسكاً بسيرة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ . في حياتهم وتمثلها من أجل القرب من الله تعالى ، ومنا هنا يكون هذا التمسك صعب مستصعب ، يقول الإمام علي ـ عليه السلام ـ ((**ان أمرنا صعب مستصعب ، لا يحمله إلّا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان ، ولا يعي حديثنا إلّا صدور أمينة وأحلام رزينة**)) (٤) .

---

(٢) الحجرات ١٤ .
(٣) التوبة ٩٧ .
(٤) شرح نهج البلاغة ١٠/٤ ، ١١٩/١٨ .
(١) نهج البلاغة ١٣٩/٢ .

فالولاية اذن ولاء لأهل البيت ـ عليهم السلام ـ وعمل بسيرتهم ، ومنهجهم المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وسيكون مجدياً تماماً أنْ نقف عندها مستندين الى قول للإمام ـ عليه السلام ـ يصف فيه أحوال أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فيقول عنهم ((**ولهم خصائص حق الولاية**))(١) .

لنتأن اذاً قبل الانغمار في جزئيات هذهِ القضية ، ونضع أيدينا بهدوء و أناة على مقاربة معرفية تتمثل في البحث عن مفهوم (**حق الولاية**) و مداليله ، استناداً الى ما يقدمه لنا المعجم العربي في هذا الاطار . وهو على النحو الآتي (٢) :ـ

١ـ الولاية : القدرة و التدبير والفعل ، وما لم يجتمع هذا في الولاية لم ينطبق عليه اسم الوالي .

٢ـ الولي : النصير ، التابع ، المحب ، الصديق .

٣ـ الولي : كل من ولي أمر واحد فهو وليه .

انَّ التدبّر في هذهِ المعاني يقود الى نتيجة مؤادها : انَّ الولي يملك القدرة والفعل بما يجعله قادراً على تدبير شؤون من اتخذه ولياً ، وفي الوقت نفسه يكشف هذا المعنى ، عن ايمان (**المولى ، التابع ، المحب ...**) بقدرة الولي الذي اتبعه على تدبير شؤونه ، فسلّم له أمره مؤمناً بصواب منهجه .

ومن هنا تظهر لنا دقة قول الامام ـ عليه السلام ـ ((**ولهم خصائص حقّ الولاية**)) .

فالولاية حق لأهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، بخصائص معلومة تتمظهر في المعنى الاجتماعي الذي مرّ ذكره في أولاً . ويجسدها القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ (٣) ، ولا تكتمل هذه المقاربة التي أشرنا اليها الّا بمعرفة أولي الأمر .

---

(٢) م . ن ٣٠/١ .
(٣) لسان العرب (ولي) .
(١) النساء ٥٩ .

تحمل الآية المباركة أمراً من الله تعالى الى المؤمنين باطاعة الله وباطاعة الرسول ـ ﷺ ـ ، و أولي الأمر منهم . فعلينا اذاً ان نستنبط دلالة (**أولي الأمر**) من سياق الآية أولاً ، مع استشارة المفسرين بعد ذلك لنتثبت مما نقول ، بغية الوصول الى الفهم المقنع الذي سيُعنينا على معرفة (**حق الولاية**) .

انقسمت الطاعة في الآية الكريمة على طاعتين : طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ـ ﷺ ـ وأولي الأمر . فطاعة أولي الأمر مقترنة بطاعة الرسول ـ ﷺ ـ بل هي جزء منها بدلالة واو العطف من جهة ، وبدلالة عجز الآية الكريمة من جهة أخرى ـ اذ يُردّ التنازع في أي شيء الى الله تعالى والى الرسول ـ ﷺ ـ ، فكأن الاشارة الاولى الى أولي الامر أغنت عن الثانية ، فلم يذكر(**أولو الأمر**) مع الرسول ـ ﷺ ـ في عجز الآية لان طاعتهم من طاعته بدلالة صدر الآية . وهذا من الاساليب المعهودة في القرآن الكريم .

انَّ ولي الأمر ــ **هنا** ــ وعلى وفق دلالة الآية الكريمة . لا يمكن أن يكون مطاعاً الّا اذا سار على نهج النبي ـ ﷺ ـ في القول والفعل . وهذا قد لا ينطبق على السلاطين و الأمراء أو أهل العلم الذين أشار اليهم بعض المفسرين وعدّوهم مقاصد لدلالة (**أولي الامر**) في الآية الكريمة (٢) ، و هذا التوجيه لاولي الامر يخلو من أيّ ضابط معرفي ، وهو كلام عام ، يجعل (**ولاة الأمر**) لا حصر لعددهم بين المسلمين في الأزمان المختلفة ، ناهيك عن انَّ السير على منهج النبي ـ ﷺ ـ في القول والفعل ، صار ركيزة خلاف بين المسلمين في العصور كلّها ، فما من فرقة من فرق المسلمين الّا وترى نفسها انها الأقرب الى هذا الذي نقوله . وهنا نقول اننا أردنا البيان فجاءنا المفسرون بالغموض.

ولكي نجلّي حقيقة ما نريد ، ونبعد الغموض المشار اليه ، ننظر في آية اخرى ورد فيها ذكر (**أولي الامر**) ، وهي قوله تعالى في سورة النساء ٨٣ ﴿ **وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ**

(٢) ذهب الصنعاني في تفسيره ١٦٦/١ الى ان أولي الامر هم (أهل الفقه والعلم ، وذهب مجاهد في تفسيره ١٦٣/١ الى مثل ذلك ايضا.

لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، فأولو الأمر هنا يستحقون ان يرد اليهم الأمر كما يُرد الى الرسول ـ ﷺ ـ بدلالة الواو العاطفة ، ولا شك انّهم معروفون من الصحابة المؤمنين الذين أمرهم الله تعالى برد الأمر اليهم ، ومن هنا فاننا لا نلتفت كثيراً الى الرأي القائل بأن (**أولي الأمر**) هم كبراء الصحابة (١) . لانَّ هذا كلام عام لا يشير الى ضابط معيّن لبيان الكبير من الصحابة (**ليس كبر السن طبعاً**) ، أو من هو من أهل العلم من الصحابة على رأي آخر (٢) .

ان دلالة (**أولي الأمر**) تشير هنا الى حسن التصرف والتدبير وصواب النظر في الأمر ودقته بحسب سياق الآية الكريمة ، فضلاً عن القدرة على التحكم الحكيم في مجاري الأمور . وهذهِ الصفات تعيدنا الى الدلالة المعجمية التي بدأنا بها حديثنا في بيان معنى الولي ، فأولو الأمر اذاً معروفون من الصحابة بهذه الخصال لذا أُمروا باطاعتهم في الآية السابقة .

واذا أردنا أنْ نعيد صياغة الفكرة السابقة بعبارة أخرى ، نقول : ان ولي الأمر الذي تتجسد فيه خصائص الولاية على وفق توصيف الامام علي ـ عليه السلام ـ هو من يعرف دلالات القرآن الكريم كلّها ، ليستنبط منها ما يغني المسلمين في حياتهم . ولما كان القرآن الكريم تبياناً لكل شيء﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ (٣) ، فان ولي الأمر هو الذي يعرف الوجود كلّه ، بعد الرسول ـ ﷺ ـ لأن الوجود كلّه ، هو (**كل شيء**) الوارد في الآية السابقة . وهذا ما اختص به علي بن أبي طالب وأهل بيته ـ عليهم السلام ـ ـ **كما مرّ** ـ .

وثمة نص قرآني آخر واضح الدلالة على حق الولاية ، وهو قوله تعالى ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ**

---

(١) ينظر زاد المسير ١٤٣/٢ .
(٢) ينظر الدر المنثور ١٧٦/٢ .
(١) النحل ٨٩ .

رَاكِعُونَ ﴾ (١) ، فقد أجمع المسلمون ، على انَّ المقصود بـ (**الَّذِينَ آمَنُواْ**) ، هو الامام علي ـ عليه السلام ـ . وقد أحصى الشيخ الأميني في كتابه (**الغدير**) ستاً وستين مصدراً من مصادر المسلمين ، أجمعت على انَّ الآية نزلت في الامام ـ علي ـ عليه السلام ـ (٢) ، بعد أنْ تصدّق بخاتمه وهو يصلي (٣) ، والذي نريده هنا ، معنى الولاية الوارد في الآية المباركة .

فالولي في اللغة ــ **كما مرّ** ــ يعني المالك ، وهذهِ ولاية الله تعالى على عباده ، لانَّه ـ جلّ شأنه ـ هو المتصرف في شؤون عباده ، وترتبط بولايته ــ سبحانه وتعالى ــ ولاية الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ و ولاية أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فالولاية واحدة ، لانّها جاءت في صدر الآية ، فتثبت بذلك لمن ذُكروا ، (**الله ــ الرسول ــ الذين آمنوا**) وهو ولاية واحدة . وقد تنبه المفسرون الى هذا التوجيه اللغوي . وقالوا انَّ الولاية لله بالأصل ، ولغيره بالعرض ولكنها ولاية واحدة في هذهِ الآية . فقد ذهب صاحب الميزان الى القول ان سياق الآية يدل على ((وحدة ما في معنى الولاية المذكورة فيه ، حيث تضمّن العد في قوله تعالى ﴿ **اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ** ﴾ ، وأسند الجميع الى قوله ((**وليكم ، وظاهره كون الولاية بمعنى واحد**)) (٤) ، وهي ولاية التصرف . للولي وهو الأحق والاولى .

بيد ان هناك من ذهب الى القول ان الولاية في الآية لكل المؤمنين ، وأفرد الركوع بالذكر تشريفاً له (٥) . وهذا الأمر يُردّ من وجهتين .

الوجهة الأولى : انَّ معنى الولاية في الآية ــ **كما تبيّن** ــ هو التصرف ، و كون الولاية واحدة ، فلا يمكن ان تكون ولاية المؤمنين مطلقة على هذا النحو ، هذا فضلاً عن انَّ (**الذين آمنوا**) اذا كان معناها مطلقاً ، فلا يمكن ان يُعترض على من

---

(٢) المائدة ٥٥ .
(٣) الغدير ١٥٦/٣ .
(٤) الاحتجاج ٢٥٢/٢ ، شرح نهج البلاغة ٢٧٧/١٣ ، مجمع الفائدة ٢١٧/٣ ، زبدة البيان ١٠٨ .
(٥) الميزان ١٢/٦ .
(١) ينظر مثالاً لا حصراً : أحكام القرآن ٥٥٧/٢ ، تفسير الواحدي ٣٢٥/١ ، تفسير روح المعاني ٤٧/٢ ، تفسير الرازي ٢٥/١٢ .

يقول انّه من (**الذين آمنوا**) وله حق الولاية المطلقة ، وهكذا يتفلت حق التصرف ، ويكون حقاً للجميع . وهنا لا يمكن ان يبنى مجتمع ، لان هذا الأمر محال .

الوجهة الثانية : انَّ معنى الركوع في اللغة الخضوع ، يقال : ركع يركع ركعاً وركوعاً : طأطأ رأسه ، ... وأما الركوع في الصلاة فيعني ان يخفض المصلي رأسه بعد القومة التي فيها القراءة حتى يطمئن ظهره راكعاً . قال لبيد :

أخبرُ أخبار القرون التي مضت أدبُّ كأني كلما قمتُ راجعُ

فالراكع : المنحني في قول لبيد ، وكل شيء ينكب لوجهه فتمس ركبته الأرض أو لا تمسها بعد أنْ يخفض رأسه فهو راكع (١) ، وهذا الوصف اللغوي للراكع ، يعني الراكع في الصلاة ، وعود على الآية . فمن تزكّى بماله في حال الركوع في الصلاة هو الامام علي - عليه السلام - بإجماع المسلمين .

ومما تقدم يكون حق الولاية الذي جعله الله تعالى لأهل البيت ، هو الذي ذكره الامام - عليه السلام -في وصفه ، بل أراد ان يعيد الى أذهان بعض المسلمين ما ندّ عنها ، من ولاية ، أهل البيت - عليهم السلام - .

ويرتبط بأمر حق الولاية . الحديث النبوي الشريف في حديث الغدير ، وهو قوله ((**من كنت مولاه فعلي مولاه**)) ، أي من كنت وليه فَعليّ وليه ، لان ((**الولي والمولى واحدٌ في كلام العرب**)) ، وثمة قول آخر ورد في لسان العرب ــ **أيضاً** ــ ، ففيه ان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : ((**من تولّاني فليتول علياً**)) (٢) ، بمعنى من جعلني ولياً له ، أو أملك حق التصرف فيه ، فلعلي مثل هذا .و هذا ما يعطيه الاستعمال الاجتماعي للغة ، بيد أن أحد علماء اللغة وهو ثعلب ، أنكر هذهِ القضية فبعد أنْ لم يجد شيئاً يمكن أنْ يعترض عليه في الدلالات اللغوية للحديث ، أنكره بحجة انَّ دلالة الحديث تعني المحبة والطاعة ، ولا تعني مولى الخلق ومالكهم . وهنا نعيد صياغة ما قلناه سابقاً بعبارة أخرى ، فنقول : إنَّ من معاني المولى : الرب

(٢) ينظر لسان العرب (ركع) ، والبيت في شرح ديوان لبيد .
(١) ورد الحديث بهذا النص في تاريخ مدينة دمشق ٢٣٨/٤٢ ولسان العرب (ولي) .

والمالك والسيد والمنعم والمعتق والناصر والمحب ، والحديث يحمل على اكثر الاسماء المذكورة كما يقول ابن منظور في لسان العرب(١) . وأتبع قوله هذا بقول آخر يتصل به وهو ((**... وقول عمر لعلي رضي الله تعالى عنهما ، أصبحت مولى كل مؤمن أي ولي كل مؤمن**)) (٢) . وثمة رواية تعاضد هذهِ الدلالات اللغوية ، فبعد ان قال النبي هذا القول قام سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ فقال : ((**يا رسول الله ولاؤه كماذا ؟ فقال ـ عليه السلام ـ ولاؤه كولائي ، من كنت أولى به من نفسه ، فعلي أولى به من نفسه فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾** (٣) . فهذه الرواية تجسد معنى الآية الكريمة ((**انما وليكم الله**)) الذي هدانا اليه الاستعمال اللغوي لهذهِ الدلالات .

وثمة أمر آخر يقوّي هذا التوجيه . وهو انَّ المراد بـ ((**الذين آمنوا**)) من أعطى الزكاة في حال الركوع ، بمعنى اثبات الصنفين له (٤) ، وهذهِ لم تثبت الّا للامام ـ عليه السلام ـ ، ومن هنا تكون الولاية التي هي فرض للطاعة ، ما أثبته الله تعالى لذاته المقدسة ولرسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وللامام ـ عليه السلام ـ ، وما يثبت للامام ـ عليه السلام ـ يثبت لأهل البيت ـ عليهم السلام ـ لانهم امتداد له في ولايتهم على المؤمنين .

بقي ان نشير الى إنّ استعمال (**انمّا**) ، يعني تحقيقاً لما تتضمنه الآية وتوكيده . وحصره ، ونفي ما عداه ، فاللغة العربية لا تسمح لنا بقراءة الآية قراءة أخرى على النحو الذي ذهب اليه بعض المفسرين . ان عدم الالتفات الى المعاني اللغوية في النصوص القديمة ، قاد الى هذهِ التفكك العقائدي ، ولو عاد الناس الى لغتهم ، الذي نزل القرآن بها ، وقرأوا الاحاديث النبوية الشريفة وأقوال الامام علي ـ عليه السلام ـ على وفق هذهِ الرؤية المستمدة من اللغة ، فهي ليست روايات حتى يطعن

---

(٢) لسان العرب (ولي) .
(٣) النهاية ف غريب الحديث ٥/٥١٠ .
(٤) إكمال الدين ٢٧٦ .
(٥) الاقتصاد ١٩٨ .

بها ، وانما هي توجيه للنصوص بحسب مقتضيات اللغة . أقول لوفَعَلَ الناس ذلك لا يبتعدوا عن كل ما يبعدهم عن هدي اللغة (١) .

ويضع الامام -عليه السلام- بعض سمات أولياء الله (**أهل البيت**) -عليهم السلام- ، بقوله : ((**انَّ اولياء الله هم الذين نظروا الى باطن الدنيا إذْ نظر الناس الى ظاهرها ، واشتغلوا بآجلها ، إذْ اشتغل الناس بعاجلها ، فأماتوا منها ما خشوا أنْ يميتهم ، وتركوا منها ما علموا انه سيتركهم ، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً ، ودركهم لها فوتاً ، اعداء ما سالم الناس وسلم ما عادى الناس . بهم عُلم الكتاب وبه عُلموا ، وبهم قام الكتاب وبه قاموا ، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون ولا مخوفاً فوق ما يخافون**))(٢) . على الرغم من عدم ذكر أهل البيت -عليهم السلام- صراحة في هذا القول ، الّا انه واضح الدلالة في الدلالة عليهم -عليهم السلام- ، ففي نهاية النص (**بهم علم الكتاب وبه علموا وبهم قام الكتاب وبه قاموا**) ، ما يؤكد ذلك ، وقد أشار الى مثل هذا القول ابن ابي الحديد اذ قال : ((**هذا يصلح ان تجعله الامامية شرح حال الأئمة المعصومين على مذاهبهم**)) (٣) وهذا يعني انّه تلمس دلالة الكلام على الأئمة - عليهم السلام - .

انَّ كل شيء في الكون ظاهر وباطن ، فالله سبحانه وتعالى ظاهر وباطن بحسب ما ورد في الحديث القدسي ((**.. كنت كنزاً مخفياً فأحببت أنْ اعرف فخلقت خلقاً فبي عرفوني**)) (٤) ، والقرآن الكريم ظاهر وباطن (٥) ، والدنيا ظاهر وباطن أيضاً . فأولياء الله وهم (**أهل البيت**) نظروا الى باطن الدنيا ، والأصل هو الباطن . أما غيرهم فنظر الى ظاهر الدنيا بما فيها من ((**الشهوات الحسية**)) (٦) ، وركن الى ما يتحقق له من ملذات . أو نظروا الى ظاهر الدنيا بتحقيق العبادات والاحكام

---

(١) تنظر أمثلة للبعد عن اللغة في تعليقات البعض على هذا الحديث : صبح الاعشى ٤٤٥/٢ .
(٢) نهج البلاغة ١٠١/٤ .
(٣) شرح نهج البلاغة ٧٧/٢٠ ، وينظر ما كتبه صاحب منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة حول رأي ابي الحديد .
(١) كشف الخفاء ١٣٢/٢ .
(٢) ينظر البرهان في علوم القرآن ١٨٠/٢ .
(٣) شرح نهج البلاغة ٢٠ /٧٧ .

بالجوارح الظاهرة (١) . أما أهل البيت -عليهم السلام- فنظروا الى باطن الدنيا بعقولهم، وعقلوها بقلوبهم ، وهذا هو علم الباطن، وموضعه القلب ،وأصله علمه : نور يقذفه الله فيه (٢) ، بل انه علم موقوف على الهبة الالهية التي يمنحها الله تعالى لمن يشاء من عباده (٣) ، فاشتغلوا بآجل الدنيا ، وهو التدبر في المعارف الالهية وفي آيات القرآن الكريم التي تحضّ على تسخير الدنيا بما فيها الى ما ينتظر الانسان في الآخرة ، فكان ما يفعله الأئمة في هذا النمط من العبادات هو آجل للدنيا ، سيحصد الانسان نتائجه في الآخرة ـ أما غيرهم فانصرف الى ما يتحقق له في الدنيا وهو العاجل . على انَّ هذا لا يعني ترك الدنيا مطلقاً ، وانما على الانسان ان يأخذ من الدنيا ، من ظاهرها ما يحقق له هدفه في الوصول الى باطنها وهذا شأن أهل البيت -عليهم السلام- بحسب وصف الامام -عليه السلام- فهم نظروا الى ظاهر الدنيا بغية الاتكاء عليه من أجل الوصول الى الباطن الذي يقود الى الآخرة ،ومن هنا يمكن انْ نفهم قولهم ((**الدنيا مزرعة الآخرة**)) ، فالدنيا عندهم ((**ما يهيء به المؤمن أمر آخرته ويجعله وسيلة الى تحصيل فوائدها وذريعة الى تمكين عوائدها**)) (٤) ، ومن هنا فانَّ النظر الى ظاهر الدنيا فقط ، هو غير النظر الى ظاهرها من أجل باطنها .

وأهل البيت -عليهم السلام- ، كانوا ينتظرون الخروج من سجن الدنيا الى حرية الآخرة ، حيث الراحة الأبدية عند اله تعالى ، فقد رُوي عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- انه قال : ((**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**)) ، و((**والله مأرجو إلّا الراحة بعد الموت**)) (٥) . وقد سار أهل البيت -عليهم السلام- على هدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فانتظروا الآخرة بلهفة المشتاق ، الذي يدرك الفوز بالوصول اليها .. وقد أدرك الآخرة ذلك الإمام علي -عليه السلام- ، إذْ قال لحظة ضرب ((**فزتُ ورب الكعبة**))(٦) ، فلا توجّع ولا آه ، أنه الفوز الأكبر . وروي أيضاً قريب من هذا عن الإمام علي

---

(٤) نخالف هنا ما فسّر به ابي الحديد قول الامام -عليه السلام- ـ ٢٠ / ٧٧ .
(٥) موسوعة مصطلحات التصوّف الاسلامي ١٣٧ .
(٦) م . ن ١٣٨ .
(٧) شرح أصول الكافي ١٥٦/١ .
(١) شرح نهج البلاغة ٢٨٧/٨ .
(٢) أنساب الأشراف ٤٩٩ ، تاريخ مدينة دمشق ٥٦١/٤٢ ، أسد الغابة ٣٨/٤ .

بن الحسين ـ عليه السلام ـ انه لما حضرته الوفاة ، أغمي عليه ، ثم استيقظ وقرأ قوله تعالى ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً** ﴾ ثم قضى ـ عليه السلام ـ .

ونختم القول هنا عن سمات أولياء الله تعالى ــ بالإشارة الى ان الإمام ـ عليه السلام ـ جعل الخلافة التي تقلّدها ، وهي غاية ما يبلغه الانسان من الدنيا ، سبيلاً و وسيلة الى الآخرة ، من حيث احقاق الحق و إقامة العدل بين الناس ، ولولا هذا لما نظر اليها ، وفي حواره مع عبد الله بن عباس ما يجلّي هذهِ الحقيقة . ((**قال عبد الله بن عباس : دخلت على أمير المؤمنين بذي قار وهو يخصف نعله ، فقال لي : ما قيمة هذا النعل ، فقلت : لا قيمة لها ، فقال عليه السلام : والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم ، الّا أنْ أقيم حقاً أو أبطل باطلاً**)) (١) .

خصائص الولاية

تعني خصائص الولاية إنّ لأهل البيت ـ عليهم السلام ـ من السمات والصفات والخصائص ، ما يجعلهم أهلاً لحق الولاية ، بل ما يجعل حق الولاية حقاً لهم ولا ينصرف الى غيرهم على وفق القيم الاسلامية والاجتماعية عصرئذ ، أما اذا استبد البعض عليهم بالمظهر الخارجي لهذا الحق (**حق الولاية**) ، فلن يضيرهم هذا . يقول الامام ـ عليه السلام ـ عن هذهِ القضية ، ((**اما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن**

(٣) نهج البلاغة ٨٠/١ .

الأعلون نسباً ، والأشدّون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نوطاً ، فانها كانت أثرة شحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين)) (١) .

فالامام هنا يستفهم منكراً ، كيف يستبد عليهم بهذا الأمر ، وهم الأعلون نسباً ، فما المراد بعلو النسب هنا ليكون أول خصيصة من خصائص حق الولاية ؟ .

جاء في الاستعمال الاجتماعي للجذر (**علو**) : ـ

١ـ الرفعة والارتفاع والشرف .

٢ـ جمع الغرف .

٣ـ القناه المستقيمة او عالية الرمح رأسه .

٤ـ العلياء : رأس الجبل . رأس كل جبل مشرف ، وكل ما علا من الشيء .

٥ـ علوان الكتاب : سمته كعنوانه .

٦ـ عليين : اسم لديوان الملائكة الحفظة ، يرفع اليه اعمال الصالحين من العباد .

٧ـ العليان : القديم الضخم .

انَّ انفتاح الجذر (**علو**) على هذهِ الدلالات الكثيرة ، لم تُبعده عن معناه المركزي الذي يتجسد فيه العلو والشموخ والرفعة والشرف ، وهذهِ المعاني مآل ما أراده الامام ـعليه السلامـ في وصفه لنسب أهل البيت ـعليهم السلامـ .

فنسب بني هاشم لا يرقى اليه نسب أحد من العرب ، باجماع العرب أنفسهم ، بل أنّهم اذا ذكروا بيوتات الشرف ، لا يذكرون بني هاشم ، لانَّ غيرهم لا يوازن بهم في الشرف (٢) . وقد أشار النبي ـصلى الله عليه وآله وسلمـ الى شرف النسب هذا بقوله ((**نقلنا من الأصلاب الطاهرة الى الأرحام الزكية**)) (٣) ، وما يقوله الرسول ـصلى الله عليه وآله وسلمـ هو عن الله تعالى ، فهل بمقدور أحد ان يقول مثل هذا القول ؟

أما اذا أخذنا بدلالة (**القناة المستقيمة**) بوصفها من دلالات الجذر (**علو**) ، فنقول انَّ نسب أهل البيت ـعليهم السلامـ مستقيم في شرفه ، منهم الى آدم ـعليه السلامـ ولعلّ هذا وجه من وجوه الاصلاب الطاهرة والارحام الزكية المشار اليها قبل قليل ،

---

(١) نهج البلاغة ٦٣ـ ٦٤ .

(١) ينظر أنساب الأشراف ٨٥/٢ عن بيوتات الشرف عند العرب .

(٢) كنز الفوائد ٧٠ ، وينظر الفضائل ٥٤ ، اقبال الاعمال ١٢٦/٣ .

فضلاً عن ان تجسيد شرف النسب واستقامته نجده في قول آخر للنبي -ﷺ- ((**ان الله تعالى لم يمسسني بسفاح في أرومتي منذ اسماعيل بن ابراهيم الى عبد الله بن عبد المطلب**)) (١) .

وفي معنى (**علا**) عالية الرمح ، أي رأسه وسنانه ، والسنان هو الجزء المعدني المثبت في أعلى الرمح ، وهو ما يطعن به . وهو - **أيضاً** - الذي يبدو ظاهراً للناظر من بعيد ، فاذا رُفعت الرماح على رؤوس المحاربين بانت أسنتها للناظرين . فنسب أهل البيت -عليهم السلام- يعلو رؤوس العرب ، ومنه قول الخنساء لما خطبها دريد بن الصمة (٢) ، ((**لا تروني تاركة بني عمي كأنهم عوالي الرماح**)) (٣) ، ويقول ابن منظور ((**شبهتهم بذلك لطراءة شبابهم وبريق سحنائهم وحسن وجوههم**)) (٤) ، بعد أنْ اطمأنت الى ان علو شرف النسب يتلقفه المتلقي من أول الكلام .

ويبقى من معاني الجذر (**علا**) رأس الجبل المشرف ، وكل ما علا من الشيء ، فالعلو هنا صفة مطلقة غير مقيدة ، فعلو نسب أهل البيت -عليهم السلام- مطلق ومن هنا لم يفكر أحد من العرب ان يقيس نسبه بنسب أهل البيت -عليهم السلام- ، وهذا يظهر لنا بعضاً مما في قول آخر للامام -عليه السلام- ((**لا يقاس بآ ل محمد -ﷺ- من هذهِ الأمة أحد**)) (٥) ، فعلو النسب وسموّه لأهل البيت يستعصي على القياس .

ويبقى من معاني الجذر (**علا**) ، عليين ، وهو أعلى الامكنة عند الله تعالى ، وفي الحديث ((**ان اهل الجنة ليتراؤون أهل عليين كما ترون الكوكب الدري في افق السماء وان الحسنين منهم وأنعما**)) (٦) ، وروي عن الامام الصادق انه قال :

---

(٣) شرح نهج البلاغة ٦٣/٧ ، ولم أعثر على الحديث في غيره .
(٤) تنظر ترجمتهُ في المعمرون والوصايا ٢٧ ، المحبّر ٢٩٨ ، الاشتقاق ٢٩٢ ، الاغاني دار ٣/١٠ .
(٥) الاغاني ٧٣/١٥ .
(٦) لسان العرب (علا) .
(١) نهج البلاغة ٣٠/١ .
(٢) الفائق في غريب الحديث ٣/٢ .

((**ان الله خلقنا من أعلى عليين**)) (١) ، ثم تلا قوله تعالى ﴿ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ** ﴾ (٢) ، وهذا يدخل في اطار النسب الى المكان ، إما من حيث الخلق ، أي انهم -عليهم السلام- خلقوا من تراب هذا المكان على قول الامام الصادق - **كما مرّ** - ، واما من حيث ما ينتظرهم عند الله تعالى ، فهم في عليين ويراهم أهل الجنة كالكوكب الدري - كما مرّ أيضاً - .

ويبقى من معاني (**عليين**) انهم كتاب مرقوم بحب محمد وآل محمد (٣) ، فيكون النسب الى هذا الكتاب من أعلى الأنساب ، ويكون أهل البيت -عليهم السلام- هم الأعلون نسباً ، ونجد ما يقوّي هذا التوجيه في رأي للشيرازي في تفسيره الأمثل ، يرى فيه ان (**المقربون**) الذين يشهدون كتاب الأبرار ((**هم نخبة عالية من المؤمنين لهم مقام مرموق**)) (٤) ، وهم أهل البيت -عليهم السلام- .

إنَّ علو النسب الذي أشار اليه الامام -عليه السلام- يحتضن هذهِ المعاني كلّها ، ولا يصح ان نفسره على معنى واحد ، لان مراد الامام - عليه السلام - يتوافق مع هذهِ المعاني ، ولا يندّ منها أي معنى . لأن السياق يتودد لها تماماً ولا يجافيها أبداً .

إن عطف النظر الى هذهِ الدلالات المعجمية ، فتحت دلالات قول الإمام - عليه السلام - ، ومنحته توسعاً دلالياً يرفل بالثراء المعرفي ، ولم تقصره على دلالة واحدة كما قيد ذلك أغلب شراح النهج .

ومن الجدير بالذكر هنا ، انّ اقتصار شارحي نهج البلاغة على دلالة واحدة في الغالب ، ناتجٌ من انّهم يعتمدون على الروايات ويغفلون الانفتاح الدلالي الذي يوفره السياق ، بعد تدقيق النظر فيه ، من خلال معاني الألفاظ اليت تتلفع بحقل دلالي واحد ، أو حقول دلالية متقاربة .

---

(٣) بصائر الدرجات ٣٥ .
(٤) المطففين ١٨ .
(٥) تأويل الآيات ٧٧٥/٢ .
(٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢٠ / ٣٤ .

المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم

٢ـ أحكام القرآن ، للجصاص (أحمد بن علي الرازي) ، محمد الصادق قمحاوي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ .

٣ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، انتشرات اسماعيليان ، طهران .

٤ـ الاقتصاد الهادي الى طريق الرشاد ، الشيخ الطوسي ، تحقيق الشيخ حسن سعيد ، مكتبة جامع جهلستون ، طهران ١٤٠٠ هـ .

٥ـ أنساب الاشراف ، البلاذري ، ج١ ، تحقيق محمد حميد الله ، معهد المخطوطات العربية ودار المعارف ، مصر ، د . ت ، و ج٢ ، تحقيق سهيل زكارو رياض زركلي ، دار الفكر ، لبنان ، ١٩٩٦ م .

٦ـ البرهان في علوم القرآن ، الزركشي (بدر الدين محمد عبد الله) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

٧ـ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر ، تحقيق علي شيري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٥ هـ .

٨ـ تفسير الواحدي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي .

٩ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، السيوطي ، دار المعرفة ، مطبعة الفتح ، جدة ، ١٣٦٥ هـ .

١٠ـ روح المعاني ، ابو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي ، ادارة الطباعة المنيرية ، مصر، د . ت .

١١- زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله ، دار الفكر ، ط١ ، بيروت / لبنان .
١٢- زبدة البيان في أحكام القرآن ، المحقق الأردبيلي ، تحقيق محمد الباقر البهبودي ، المكتبة المرتضوية لأحياء الآثار الجعفرية .
١٣- شرح أصول الكافي ، محمد صالح المازندراني مع تعاليق ميرزا ابو الحسن الشعراني ، د . ت .
١٤- شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٦ م .
١٥- صبح الأعشى في صناعة الانشا ، أحمد بن علي القلقشندي ، تحقيق دكتور يوسف علي طويل ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٧ م .
١٦- كشف الخفاء ومزيل الالباس ، اسماعيل بن محمد العجلوني ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط٢ ، ١٤٠٨ هـ .
١٧- لسان العرب ، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .
١٨- موسوعة مصطلحات التصوف الاسلامي ، الدكتور رفيق العجم ، مكتبة لبنان ــ ناشرون ، بيروت / لبنان ، ١٩٩٩م .
١٩- النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ، مؤسسة اسماعيليان ، قم ، ط٤ .
٢٠- نهج البلاغة ، الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ ، جمع الشريف الرضي ، تحقيق وشرح الشيخ محمد عبده ، دار المعرفة ، بيروت / لبنان.